تعدد الأصوات وتداخلها
في قصص عبد القادر بن سالم

الأستاذ. عمر بلخير
جامعة تيزي وزو

اقترن مفهوم تعدد الأصوات *polyphonie* بنظرية التلفظ ونظرية الحجاج التي أسسها ديكرو، ويعود أصل المفهوم إلى ميخائيل باختين عند تأسيسه للحوارية في كتابه شعرية دوستويفسكي. وأشارت الناقدة والباحثة البلغارية جوليا كرستيفا إلى هذا المفهوم في حديثها عن تلك المجموعة من العلاقات التي يقيمها النص مع النصوص الأخرى، والتي يصير فيها المتكلم متعددا، ويتجلى ذلك في التناص.

وفي تعريفه للمصطلح، يقول نولكه: [إن العديد من والتراكيب النحوية تضع في الواجهة بنى متعددة الأصوات... ويكمن الهدف الأسمى من نظرية تعدد الأصوات في كونها تسمح بتجسيد وإظهار العلاقات المحددة بين شكل الملفوظ وتأويله.]*

فالتأويل إذن هو المجال الذي تتجلى فيه ظاهرة تعدد الأصوات، و هو ما يفسر تطور هذا المفهوم واتساعه ليشمل، إلى جانب الدراسات اللسانية و النقدية، التي وظفته لتجسيد العلاقة الضمنية بين المؤلف وشخوصه و الأصوات المجهولة التي تعمل على التصريح بأشياء، على لسان المؤلف أو الكتاب، دون الإعلان عن نفسها، الدراسات التي تتناول الإعلام المكتوب والإشهار...

لتوضيح ذلك يميز ديكرو بين هيأتين منتجتين للخطاب: المتكلم والمتحدث أو المتحدثين. المتكلم هو المسؤول الأول عن القول المتلفظ به، إنه يترك آثارا في الملفوظ تشير إلى وجود متحدث أو متحدثين من ورائه. مثال ذلك: عبارة[أشرب باردا] التي ترد على زجاجة العصير. إن المتكلم في هذه العبارة هو الضمير "أنا" الذي تشير إليه صيغة الفعل المضارع، أما المتحدث أو المتحدثون فقد يكون مخترع العصير أو مخترعيه، وقد يكون صانعه أو صانعيه، وقد يكون مسوقه أو مسوقيه...

ومن هنا نتساءل: ما هي الصور التي تتجلى فيها ظاهرة تعدد الأصوات في قصص القاص الجزائري عبد القادر بن سالم، وما وظيفة ذلك؟

---

*- H.NØLKE : Le regard du locuteur, Paris, KIME, 1993, P220.

إن من يقرأ قصص عبد القادر بن سالم سيدهش منذ البداية بالكم الكبير من الأصوات التي تتداخل بطريقة تناغمية يشعر فيها القارئ أن أشخاصا آخرين يرغبون في مخاطبته، هذه الأصوات وإن تناصت أحيانا مع خطاب القاص، فإنها تشكل في حقيقة الأمر المنابع الفكرية والمعرفية التي اغترف منها هذا الأخير، والتي شكلت الخلفية المعرفية للقصص، فيشعر القارئ في بعض الأحيان أن هذه الأصوات تحاول أن تقحم نفسها في خطاب عبد القادر بن سالم، فتختفي شخصيته لفترة ثم تعود للظهور من جديد، وكأنه يتعمد ذلك ليعطي الفرصة لهذه الأصوات لتعبر عما يختلج في نفوسها و لتكون بمثابة لسان حال الأفراد والجماعات، لتدلي بدلوها فيما آلت إليه أحوال الناس من فساد.

إن هذا التدخل المستمر لمختلف الأصوات في قصص عبد القادر بن سالم جعلنا نصول ونجول بين مختلف النصوص في جو مفعم بالجمال والاتساع المعرفي من جهة، ومن الحزن والتشاؤم من جهة أخرى.

التساؤل:

يعد السؤال عند عبد القادر بن سالم نمطا خطابيا بالغ الأهمية بسبب ما تحمله هذه الأسئلة من آثار تبليغية لأشخاص يبدو لنا للوهلة الأولى أن مصدرها الشخصيات أحيانا والكاتب أحيانا أخرى، إلا أنه إذا أمعنا النظر فيها تبين لنا أنها آثار لأشخاص واقعيين تعيشون في الواقع، تؤثرون خطابيا ويتأثرون.

يطرح الكاتب مجموعة من التساؤلات في العديد من قصصه، وبصفة خاصة: الصمت والجدار والفرح الأبيض، وهي أسئلة لو أمعنا النظر فيها في ظل السياق الذي وردت فيه، لوجدنا أنها أسئلة لأشخاص آخرين، يشعر فيها الكاتب بآلامهم وحيرتهم. إن السؤال الوجودي في قصة[الصمت والجراح] *كيف يمكن للإنسان أن يعيش من لحظات الدنيا؟* والذي جاء على لسان الشخصية التي تشاهد أباها طريح الفراش بعد أن عجز عن الحركة، قد لا يشكل في رأينا إلا رأي الكاتب ورأي الأشخاص الذين يعانون مثله قذارة الزمن والناس.

يقول في مكان آخر من القصة: بيني وبينك أيها الزمن مسافة تتسع أو تضيق، لي فيها مد وجزر وحمائم موسومة ببياض الإشراق و سواد الدقائق الميتة من عمري المتثائب على أرائك الخوف الأزلي...ص**16**

قد نتساءل على من يعود ضمير المتكلم أنا في هذه القصة، أهي *للشخصية الورقية* كما يسميها هو، أم لشخصيات واقعية.

لقد شكلت مقدمة الكتاب مفتاحا لفهم بعض الألغاز التي احتوتها بعض القصص: إن التساؤلات الواردة في هذه القصة[الصمت والجراح] وفي غيرها،

والتي صيغ بعضها على شكل مناجاة، قد نجد لها أجوبة في هذه المقدمة، وهو ما دل عليه مضمون المقدمة: الشخصيات الواردة في هذه المجموعة شخصيات من ورق، ولكنها تحمل عمق المرحلة وتحاور معادلات الواقع الذي يصعب التمييز فيها بين الوطنية والنفاق و التمسح بالدين...ص**5**

ومن هنا يصعب إسناد هذه التساؤلات إلى الكاتب ذاته أو إلى شخص آخر، إنها تساؤلات لمجموعة من الذوات تشترك في المعاناة نفسها.

استحضار الشخصيات التاريخية والواقعية والخيالية.

أشرنا فيما سبق إلى الطابع الموسوعي الذي ساد قصص عبد القادر بن سالم، إذ تمتزج خطاباته بخطابات وأصوات أخرى، تتغلب عليه أحيانا بفرض ذواتها عليه كما وجدت أحيانا، وبتحويره لها أحيانا أخرى.

إن العبارة التي افتتح بها الكاتب قصة [ثرثرة نائب]، هي عبارة مشهورة لشخصية من أشهر شخصيات الكاتب المسرحي الإنجليزي ويليام شكسبير، وهي شخصية هاملت في قولته المشهورة[كن أو لا تكون]، وقد أسندت في القصة للنائب الانتهازي، الذي ظل يرددها كلما خاطب شخصا بهاتفه النقال.

والملاحظ أن استخدام المزدوجات تجلى بوضوح في هذه القصة، وهو ما يعكس رغبة المتكلم-الكاتب في عدم تحمل مسئوليته فيما قالته شخصياته، كما هو ظاهر في التعبيرات التالية [مريبا، الغريبين، المطنح]، من جهة، ونقله بأمانة كلام النائب من جهة أخرى.

وقد جاءت عبارتان من أشهر ما حفظته الذاكرة عن الشاعر امرئ القيس أثناء مناجاته لليل، بقوله في قصة [الفرح الأبيض]: أسدل باقي الليل ستائره على المدينة...

وهو نقل، مع بعض التحوير، للبيت الشعري:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

أو العبارة التي جاءت في قصة [الضرب في الصفر]، والتي تعارض قولة الشاعر المشهورة، التي قالها أثناء بلوغه خبر قتل أبيه: اليوم خمر وغدا أمر، وهي: اليوم شر وغدا أمر.

نجد في مكان آخر تداخلا لأصوات بعض رجال الصحافة والسياسة الجزائرية أثناء تناولهم بعض القضايا السياسية والاجتماعية، من ذلك كلمة المطنح في قصة [ثرثرة نائب] التي تحيل على الكلمة التي استخدمها أحد رجال السياسة

الجزائريين لنعت بعض المنتخبين الجزائريين باللاوعي السياسي، وقد تناولتها الصحف بالتعقيب لفترة، وهي كلمة الغاشي.

وهناك عبارة العشرية السوداء التي تحيل على الأحداث الدامية التي عاشتها الجزائر منذ بداية التسعينيات.

وهناك الأسلوب الذي كان ولا يزال توصف به الوضعية التي آلت إليها وضعية المثقف الجزائري، أضف إلى ذلك الكيفية التي كانت الصحف ووسائل الأعلام الجزائرية تقدم بها المثقف.

وقد حضر ذلك في قصة[ثلاثية لزمن الشوك والعراء]، ويبدو ذلك جليا في هذا الحوار:

نطق أحدنا مكسرا الصمت

– المسكين لقد أفرغوه من كل شيء

أضاف الثاني

– هذا قدره وقدر الكثير من أمثاله، ولكن لكل شيء نهاية

– أي نهاية يا رجل وقد أضحى كما ترى شبه ميت؟

– الموت أهون له من أن يعيش على هذه الحال.

رد ثالث

– صحيح، لكن لا تنسى أن الموت بإذن الله، ولكن صورته هذه ستبقى وصمة عار للذين أوصلوه إلى هذا النفق.ص ص**30-31**

يعكس هذا الحوار نظرة عبد القادر بن سالم وبقية المثقفين والصحفيين ورجال السياسة لهذه الفئة المقهورة من المجتمع في ظل التحولات الجذرية للنظام العالمي الجديد.

يتجلى تذمر هذا المثقف بحدة في هذا المقطع من القصة:

... قاطع حوارنا مرة أخرى، جلس القرفصاء قبالتنا وكأنه يريد أن يقول شيئا ذا أهمية، سلم علينا من جديد، لم نستغرب ذلك، ذكرنا بأسمائنا...أخرج من محفظته الجلدية التي صارت بائسة بفعل الشمس أوراقا كثيرة، وصرخ في وجوهنا بأن نقرأها... كانت شهادات كثيرة تحصل عليها من العراق وفرنسا. وقف، فرك عينيه وشرع يتبول عليها...].ص**31**

وقد كان للحلاج وللسندباد حضور في قصة [حكايات المدينة]، وأبي جهل في قصة [أبو جهل يبعث من جديد]، حيث لقي فيها نفس المصير الذي لقيه منذ أربع عشرة قرنا. حضر فيها أيضا علي بن أبي طالب والحجاج بن يوسف و الميداني ورضا حوحو.

وقد حضرت أيضا عبارة رددتها كتب التاريخ والسياسة بعد سقوط الحكم الملكي الفرنسي، وهي عبارة تستخدم للسخرية: [مات الملك يحيا الملك] في قصة[الضرب في الصفر].

الأمثال الشعبية

يشكل المثل الشعبي نوعا خطابيا مصغرا*micro genre du discours* وفي هذا الإطار يميز منقونو في تحليله للأمثال بين المتلفظ *l'énonciateur*والمثبت *l'asserteur*. فالمثبت هو ذلك الشخص الذي حينما يتلفظ بمثل معين، يكون قد وضع إثباتا يعتبره مشروعا من قبل كيان غير محدد هو [حكمة وعبقرية الشعوب]، إنه يقدم قوله ذلك بمثابة صدى لعدد غير منته من المتلفظات السابقة[1]. ويندمج اللافظ – الذي يعتبر مصدر المثل- بالمثبت، فهذا الأخير هو المسؤول عن محتواه.

انطلاقا من هذه الملاحظة، يعتبر استعمال المثل الشعبي ظاهرة متعددة الأصوات، و قد نلاحظ ذلك بوضوح في قصص عبد القادر بن سالم. فنجده في قصة [أحلام آخر الليل] يستعمل مقولة كان المرحوم أبوه يرددها على مسمع منه: [الرجل اللي ما هوش بلا سلاح ما هوش تراس]، والمقصود بها أن الرجل [بمعنى جنس الرجل، وهو يقابل جنس المرأة] الذي لا يحمل سلاحا بين يديه لا يمكن اعتباره رجلا [بمعنى الشجاعة و المروءة].

هنا نتساءل من هو المقصود بهذا الرجل المنعدم المروءة ؟ ومن هو المسؤول عن هذه المقولة في هذا السياق أهو الأب ؟ أم عبد القادر بن سالم ؟ من المقصود بهذا الاستعمال للمثل؟

كل هذه التساؤلات تعكس بوضوح الطابع المتعدد الصوتي للمثل عند عبد القادر بن سالم.

هذه الظاهرة نجدها أيضا في ما جاء على لسان أحد كبار سحرة الحي الذي يقطنه أبو جهل [القرد الشارف ما يتربى] والتي تعني تماما ما جاء في المثل العربي القديم [من شب على شيء شاب عليه]، في قصة [أبو جهل يبعث من جديد] حين رأى أبو جهل في حلمه أن مخلوقا يشبه البهيم قد وضع على ظهره أكياسا من رمل وضربه بعنف على مؤخرته كالأتان الجرباء، وذلك حينما انتهى من قراءة الفصل الأخير من رسالة الغفران، هنا أيضا نتساءل عمن هو هذا القرد الشارف؟ وهل يعد كبير سحرة الحي مسؤولا عن المقولة، علما أن الكاتب قد

1 – D.Maingueneau (1999) : l'énonciation en linguistique Française, paris, Hachette,p146

اعترف منذ البداية أن شخصيات قصصه هي شخصيات من ورق. بالتالي قد يكون هو المسؤول عن المثل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قد يوحي سرده لهذين المثلين في مزدوجتين على أنه قد يتبرأ مما أورده من أمثال وأقوال مأثورة، لأنه هناك من يرى أن استخدام الأمثال في مجال السخرية يوحي إلى أن الكاتب يشير إلى رفضه وعدم تبنيه لها، أو الإشارة إليها دون أن يتبنى محتواها، وهو ما يجعل محتواها عسير التأويل[1].

حضور الخطاب القرآني والنبوي

إن حضور الخطاب القرآني في قصص عبد القادر بن سالم يكاد يشمل جل النصوص، وهو بذلك، وبعد استحضاره لعبقرية الشعوب واستنطاقه لها دون جدوى، ها هو يختار تجاوز هذه العبقرية إلى عبقرية أكبر وأكثر تأثيرا على العقل و العاطفة والروح، وهو القول المقدس الذي أثبت منذ الأزل قدرته على الإقناع والتأثير في النفوس.

يحاول الكاتب أن يضفي روح الجدية والحقيقة المطلقة على خطابه، ويسعى إلى تذكير هؤلاء الذين وصفهم في المقدمة بالنفاق والتمسح بالدين وانعدام روح الوطنية فيهم... بمصيرهم السوداوي. فكان من حين لآخر يستخدم أحد الأساليب المشهورة في الإقناع* في القرآن الكريم وهي الترغيب في مثل هذه الأمثلة: ...نهر العسل والشراب ... أو ... جنات الفردوس... في قصة [الفرح والموت] أو الترهيب في[شجرة الزقوم] وهو عنوان قصة من قصصه، أو ... أعجاز نخل خاوية ... في [الضرب في الصفر].

إلا أن استحضار قصة أهل الكهف في أكثر من قصة من قصص المجموعة يبدو موحيا في قصتين.

يتجلى الاستخدام الأول في قوله في الفقرة الأخيرة من قصة [أبراج]: كانوا ثلاثة، صاروا أربعة، كفروا بالأرقم وبطول السجادات وبالسجادات الفاخرة... لعنوا زمنا لقنوا فيه العوام كيف تكون فيه العبادات. ثم ندموا على الفتاوى و الدعاوى والجلوس القرفصاء... كانوا يذكرون ذلك شريطا عابرا مر بحياتهم...ص**28**

إن هذا المقطع، وإن كان لا يحيل مباشرة على النص الذي جاءت عليه قصة أهل الكهف في القرآن الكريم، فإنه يشير إلى الحوار الذي جرى بين الفتيان الثلاثة

1 – D. Maingueneau (1998): Analyser les textes de communication, Paris, Dunod, p158.

*– فالإقناع يتم بمخاطبة العقل أو بمخاطبة النفس.

في الكهف، وهم أربعة بمعية كلبهم، الذي شاركهم طول السفر عبر الزمن. إلا أننا لاحظنا أثرا لتوفيق الحكيم الذي جعل هؤلاء الفتيان يتحاورون ويسردون ما حدث لهم قبل تواجدهم في الكهف، في مسرحيته أهل الكهف.

وفي [حكايات المدينة] يعود أهل الكهف من جديد، وقد صرح بهم عبد القادر بن سالم بقوله: نام السجناء على إيقاعاتها نوما عميقا لم يعرفوه في حياتهم، شعروا براحة كراحة أهل الكهف، كلهم حلموا رؤية واحدة رأوها... قصة واحدة.ص**48**

أما الحديث النبوي فقد قل حضوره في قصص الكاتب مقارنة بالخطاب القرآني، إذ يبدو في بعض العبارات القليلة مثل أضغاث أحلام في قصة [الفرح الأبيض] أو غثاء كغثاء السيل في قصة [حكايات المدينة] ويظهر هذا بمثابة تأكيد لمقولة الرسول [صلعم] التي يباهي فيها بأمته أمام الأمم الأخرى، وهي أمة صارت غثاء كغثاء السيل، استرجل فيها أصحاب الحلق والدجالون، فهم ... قوم تسيدوا على عشيرتهم، فكانوا غثاء كغثاء السيل...رفضهم التاريخ حين سجل أسماءهم على آبار القاذورات، كان همهم ملء البطون و إشباع الرغبة... نسوا الوعود والأصدقاء، فكانت أفواههم مفتوحة دوما كالتماسيح ولما انتهى زمن الربيع وجدوا أنفسهن عرايا كقردة الأمازون.ص**49**

خاتمـة:

تشكل نصوص عبد القادر بن سالم سمفونية تداخلت فيها أصوات متعددة ومتباينة، امتزج فيها الواقع بالخيال والمقدس بالمدنس والتشاؤم بالتفاؤل والسياسة بالأدب...

فقد تداخلت أقواله بأقوال بعض رجالات الأدب العظماء أمثال شكسبير وأبي العلاء المعري، وببعض مقولات بعض السياسيين والإعلاميين، فكان ينقل لنا أحيانا تساؤلات يطرحها الجزائري على نفسه لفهم مصيره في ظل الضباب الذي يسود الجزائر والعالم العربي، تنم عن نفوس حائرة و متألمة ومتشائمة. فكان يناجي أحيانا السندباد وامرئ القيس وأبا جهل والحجاج بن يوسف وعلي بن أبي طالب والميداني ورضا حوحو... وينقل العبقرية الشعبية والكلام المتداول بين رجال السياسة والإعلام وبين عامة الناس من جهة أخرى.

وما استحضاره لخطاب الله عز وجل ورسوله الكريم إلا ليضفي على خطابه مسحة الجدية، ويدق ناقوس الخطر من أجل أن يستعيد القارئ العربي رشده و يخرج من الكهف الذي أوقع نفسه فيه.

المراجع

1 – عبد القادر بن سالم: قصص، منشورات الاختلاف، الجزائر**2002**.

H.NØLKE (1993) : Le regard du locuteur, Paris, KIME.

D.Maingueneau (1999) : l'énonciation en linguistique Française, paris, Hachette.

(1998) : Analyser les textes de communication, Paris, dunod. -